١ ــ غرابيل

هم وزراؤنا ــ إن صحت أنباء « الأهرام » ــ والظاهر أنها صحيحة لأن الأهرام قد عادت اليوم إلى توكيدها . وتحدَّت رئيس الوزراء مرة أخرى ، وأعلنت إليه فى صراحة جازمة وتأكيد قاطع أنها تلقت هذه الأنباء عن أكثر من وزير ، وإذن فرئيس الوزراء يتحدث إلى زملائه بطائفة من الأحاديث يجب أن تكون سرًّا مكتوما ، لأنها من المسائل التى لا يجب أن تذاع ، ومن الدقائق التى لا ينبغى أن تشاع ، فلا يكاد الوزراء يتفرقون عن رئيسهم حتى يملئوا الأرض بما ألقى إليهم من سر ، وما ائتمنوا عليه من حديث .

هم إذن غرابيل ، لا ينبغى أن تلقى إليهم الأسرار ، ولا ينبغى أن يؤتمنوا على الأحاديث ، وإنما يجب أن يستأثر رئيس الوزراء من دونهم بأسرار الدولة وشئونها ذات الخطر ، فهم قد أذاعوا ــ إن صحَّت أنباء الأهرام ــ أسرارًا أقل ما توصف به أنها مزرية بكرامة الدولة ، غاضة من قدرها ، تظهرها مضطربة جزعة لما يذاع من الأنباء عن نقل المندوب السامى من مصر ، أو رجوعه إليها وإقامته فيها ، وتظهرها فزعة هلعة لما يقال من أن اللجنة الإنجليزية المصرية راضية عن النظام القائم ، أو ساخطة عليه ، مؤيدة للوزارة أو متنكرة لها .

وليس من كرامة الوزارة بحال من الأحوال فى نفوس المصريين ، سواء كانوا من أصدقائها أو من خصومها أن تظهر على الوزارة أعراض هذا الضعف المخجل ، وهى التى تتحدث بالاستقلال ، وتزعم أنها شديدة التعلق بأسبابه ، غالية فى الحرص على مظاهره وأشكاله ، بل على حقائقه التى لا تقبل الشك ولا تحتمل النزاع .

لم يصدق أحد من المصريين أن الوزارة مستقلة إلى هذا الحد الذى كانت تزعمه لنفسها ، ولم يصدق أحد من المصريين أن الوزارة أرغمت الإنجليز ــ

---

(١) كوكب الشرق ١ ــ ٥ ــ ١٩٣٣

كما كانت تقول على أن يعترفوا بحقيقة هذا الاستقلال ويرعوا حرمته ، ويقفوا من الوزارة والأمة موقف الحياد . لم يصدق أحد شيئا من هذا ، ولكنه كان كلاما يقال ، وأحاديث تجد صحف الوزارة من نفسها الشجاعة على ترديدها كلما احتاجت إلى ترديدها .

أما الآن وقد أفشى الوزراء أسرار مجلس الوزراء ، أما الآن وقد أذاع الوزراء أحاديث رئيس الوزراء ، أما الآن وقد عرف الناس جميعا من الوزراء أنفسهم ـــ إن صحَّت أنباء الأهرام ـــ أن الوزارة قد جزعت لتلك البرقية التى أرسلت إلى البلاغ فنشرت فى الأهرام . أما الآن وقد عرف الناس جميعا أن رئيس الوزراء تحدث إلى وزيرنا المفوَّض فى لندرة بالتليفون ، أما الآن وقد عرف الناس جميعا من الوزراء أنفسهم دقائق هذا الحديث فنظن أن صحف الوزارة ستكف عن التحدث بهذا الاستقلال إن كانت لها بقية من حياء .

أليس مما يلائم كرامة الوزارة فى نفوس المصريين من الأصدقاء والخصوم أن يعرفوا منها هذا الضعف وأن يلمسوا منها هذا الوجل كلما جاء نبأ من لندرة ، وأن يبحث الوزراء ويستقصوا ثم يلتقوا بعد البحث والاستقصاء فيهدىء بعضهم بعضا ، ويهنىء بعضهم بعضا لأن المندوب السامى مقيم غير منقول ، ولأن اللجنة الإنجليزية المصرية قد أخفقت ولم يقدر لها النجاح !!

ليس مما يلائم كرامة الوزارة فى نفوس المصريين أن يعلن رئيسها فى الصحف أن بقاء الوزارات وسقوطها رهينان برضى الملك وثقة البرلمان ، ثم لا يمضى يوم وبعض يوم حتى يتحدث إلى زملائه ـــ إن صحَّت أنباء الأهرام ـــ بأن ليس على الوزارة خوف لأن المندوب السامى مقيم ، ولأن اللجنة الإنجليزية المصرية لم توفق إلى ما كانت تريد من تغيير النظام !!

ليس شىء من هذا ملائما لكرامة الوزارة فى نفوس المصريين ، وليس شىء من هذا ملائما لكرامة الوزارة ، ولا كرامة مصر فى نفوس الأجانب ، فإن كل مصرى يستحى أن يعرف الأجانب الذين لا يقفون على دخائل الأمور أن هذه الوزارة التى تذيق المصريين ألوان العذاب تخاف من الإنجليز إلى هذا الحد ، وتفزع من نقل المندوب السامى إلى هذا الحد ، وتجزع من سعى اللجنة الإنجليزية المصرية

إلى هذا الحد فهى تلقى المصريين بالشدة والعنف ، وتلقى الإنجليز بالضراعة والخوف ، وتذكّر بقول الشاعر القديم للحجاج :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من نفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر[1]

نعم ، لم يَرْع هؤلاء الوزراء الذين أفشوا سر مجلسهم ، وأذاعوا حديث رئيسهم كرامة الوزارة وكرامة الدولة معا ، وليس لذلك كله مصدر إلا أن هؤلاء الناس قد كُلِّفوا من الأمر ما لا يطيقون ، وحملوا من مناصب الدولة ما لم يهيأوا له ، ولا ينبغى أن يؤتمنوا عليه . فإن الوزير الذى يلم به من الأمور السياسية ما يكره ، فلا يملك نفسه أن يذيعه ، ويتحدث به إلى الناس ، ويلم به من الأمور السياسية ما يحب فلا يملك نفسه أن يتحدث ويذيعه بين الناس . هذا الوزير خليق أن لا يظل فى منصبه يوما أو بعض يوم ، لأنه قد أقام البرهان على أنه لا يصلح للوزارة ، ولا ينبغى أن ينهض بأعباء الحياة العامة .

هؤلاء الوزراء الذين أذاعوا أسرار مجلسهم ، وأحاديث رئيسهم ـــ إن صدقت الأهرام ـــ فى أمر مزر بكرامة الدولة ـــ خليقون غدا أن يذيعوا أسرار مجلسهم وأحاديث رئيسهم فى أمر يمس أمن الدولة وسلامتها ، وإذا استطاع مندوب الأهرام أن يعبث بالذين تحدثوا إليه من الوزراء فيستخلص منهم هذه الأسرار ، فقد يستطيع هو أو غيره من الصحافيين المهرة أن يعبثوا بهم مرة أخرى ويستخلصوا

---

(١) علَّق المبرِّد على البيت الثانى بقوله : « فهذا يجوز فى الخفقان أو الذهاب ألبتة ، وفى الكامل : « ربداء » فى موضع « فتخاء » .

وقد قال هذه الأبيات الشيبانى للحجاج بن يوسف الثقفى .

(انظر الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٧٤٧ طبع مصطفى الحلبى) .

وقد ردد أناس كثيرون هذين البيتين يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وكان شعراوى جمعة وزير الداخلية فى تلك الأيام ـــ لا أعادها الله ـــ قد توجَّه إلى معتقل طره وأصدر أوامره بتشديد الحراسة على المعتقلين ، وقال للضباط : إذا هرب المجرمون كلهم فلا ضرر ، ولكن إذا هرب معتقل من الإخوان المسلمين فإننا سنروح فى داهية » ولم يهرب أحد من الإخوان ومع ذلك فقد ذهب شعراوى جمعة فى ستين داهية وانتقم الله منه شر انتقام ، كان شعراوى جمعة يعتقد أن البلد بلده وأنه صاحب أمر يأمر وينهى وأنه خالد فى وظيفته وأن مصير الأمة أصبح فى يده ، وأين تنظيمه الطليعى يوم حلّت الهزيمة الساحقة التى ما زلنا نعانى من آثارها .

منهم أسرارا وأحاديث أشد من هذا السر خطرا ، وأبعد من هذا الحديث أثرا .

إن الحكومة لا تكاد تأخذ أحدا من موظفيها بأنه قد أفشى أسرار الإدارة أو أذاع حديثا من أحاديثها الخاصة حتى تعاقبه أشد العقاب ، وتنكل به أشد التنكيل ، فما أعد رئيس الوزراء لزملائه هؤلاء إن كان ما نشرته الأهرام عنهم صحيحا ؟ وهى تؤكد صحته وتتحدى الوزارة ، ويظهر مندوبها بشخصه ، ويمضى هذا التحدى باسمه ، ويعلن بذلك أنه محتمل لتبعة ما نقل إلى صحيفته من الأحاديث .

ماذا أعد رئيس الوزراء لهؤلاء الزملاء ؟ أيحيلهم على مجلس التأديب أم يقيلهم من العمل ؟! أم يكتفى باللوم والتأنيب ؟! مهما يفعل رئيس الوزراء من ذلك فإن من المحقق أن هؤلاء الزملاء الذين يعتمد عليهم ويثق بهم ليسوا خليقين باعتماده عليهم ، ولا مستحقين لثقته بهم ، لأنهم قد أصبحوا غرابيل ، وما ينبغى أن توكل أسرار الدولة إلى الغرابيل !

إن الأهرام(١) تتحدى الوزارة ، وتسرف فى التحدى ، ونحن لا نتحدى ، ولا نسرف فى تحدى أحد ، ولكنا نريد أن يضع رئيس الوزراء حدا لهذا الخطر الذى تتعرض له كرامة الحكومة ، وأن يبيِّن للناس بطريق قاطعة لا تحتمل الشك أن الوزراء لم يتورطوا فى هذا الاثم . وإذن فيجب أن تحمل الأهرام تبعة هذه الجرأة على الحق ، وعلى مقام الوزارة ، أو أنهم قد تورطوا فى هذا الإثم فيجب أن يقالوا وأن يُقصوا عن الحكم الذى أصبحوا غير صالحين له ، ولا قادرين عليه .

وبعد ، فماذا أراد رئيس الوزراء بهذا البلاغ الذى أصدره أمس يكذِّب به الأهرام ، والذى احترمته الأهرام ولكنها كذَّبته تكذيبا قاطعا ؟!

---

(١) كانت صحيفة الأهرام فى ذلك الوقت موضع ثقة الجماهير ومحل احترامها ، وإذا أراد الإنسان أن يتأكد من صحة خبر فليرجع إلى الأهرام ، وكان محمود أبو الفتح محررا مرموقا فى تلك الصحيفة ، يُعمل لمقالاته كل حساب .

فالمسألة الجوهرية فى الصحيفة لا تنحصر فى المطابع الحديثة ولا فى الدار الفخمة والمرتبات العالية ؛ لأن الناس يعرفون مصدر الأموال الطائلة التى هيأت للأهرام هذا الوضع ، وإنما المعوَّل فى الصحيفة على ما تتمتع به من حرية واحترام ، أما الصحفى الذى يشعر بأنه موظف عند الحاكم فلا ترجو منه خيرا ولا ينبغى أن نكلفه فوق طاقته ، فطالب القوت ما تعدَّى .

ماذا أراد رئيس الوزراء بهذا البلاغ ؟ أخاف من المصريين فأراد أن يؤكد لهم أن وزارته أحرص على كرامتها ، وأوثق بقوتها ، من أن تسرف فى خوف الإنجليز والتهالك عليهم إلى هذا الحد ؟ أم خاف من الإنجليز أن يغضبوا فأراد أن يقسم لهم أن هذه الأحاديث لم تكن ، وأن مجلس الوزراء لم يخض فى أمر المندوب السامى ، ولم يتحدث فى أمر اللجنة المصرية الإنجليزية بقليل أو كثير ؟ ليصدقنا رئيس الوزراء فإن الموقف السياسى الذى اضطرت إليه وزارته فى هذه الأيام أهون على المصريين من شىء آخر شديد الخطر ، وهو أن يعلموا أيهما الصادق ! أهى الحكومة فى بلاغها أم الأهرام فى تحديها المتصل ؟

إن سكوت الوزارة على هذا التحدى الجرىء ؛ خليق أن يمحو ما بقى من مهابتها فى نفوس أنصارها ، بعد أن محت الحوادث مهابتها فى نفوس خصومها . فلينظر رئيس الوزراء كيف يجد لنفسه مخرجا من هذا المأزق الذى لا بد من الخروج منه ، وما نرى أنه يخرج من هذا المأزق إلا بالاستقالة أو تعديل الوزارة ..!